السهم الرابح

للكاتب الروسى أنطون تشيكوف

بقلم السيد جورج سلستى

لم يكن (إيفان ديمتريش) ميسوراً فى حياته ولا معسوراً ، ولا كان ربّ ثراء يعيش منه فى نعيم ، ولا أخا فاقة يشكو العوز والفقر ؛ وإنما كان يحيا حياة رضيّة هانئة براتب سنوىّ قدره ألف ومائتا روبل . ولم يكن طموحاً بعيد الأحلام بل كان قانعاً بحظه من دنياه راضياً بقسمته منها

ولقد كان جالساً بعد العشاء على الأريكة يتصفح جريدته ويطالع أنباءها عند ماقالت له زوجه وهي ترفع السماط عن المائدة :

— لقد فاتنى أن أقرأ الجريدة اليوم ، فانظر يا إيفان فلعلّ الأرقام الرابحة منشورة بها فأجابها :

— إنها لمنشورة ، ولكن ألم يذهب عن بالكِ أن تدفعى بدل الضمان يا ماشا قبل ميعاد السحب ؟ ثم انظرى ، ألم تفقديه ؟ !

— لا لم أفقده ، ولقد سدّدت قيمة الضمان يوم الثلاثاء المنصرم

— مارقم السهم الذى تحملين ؟

— رقم السباق ٩٤٩٩ ورقم السهم ٢٦

— حسن ، سنرى ، ٩٤٩٩ و ٢٦

لم يكن إيفان يعتقد أن المرء قد يؤاتيه حسن الطالع فيربح فى النصيب ، ولم يكن ليعتبر هذا النوع من الأمل إلا ضرباً من الوهم الباطل ، وهو لو كان فى ساعة غير هذه الساعة لما أعار قائمة السحب اهتمامه قط . أما وقد كان فى فترة فراغ ، وكانت الصحيفة بين يديه ، فلا بأس إن هو راجعها ؛ ومن يدري ؟ فقد يسهو الدهر مرة فى العمر عن الزراية به ، وقد يبسم القدر بسمةً واحدة في الحياة ، وقد يكون هذه المرة من أولى الحظ ، فلير إذن ولتتبع عيناه جدول الأرقام من أعلاه إلى أسفله واضعاً سبابته تحت كل رقم حتى لايفوته التدقيق

يا للسعد :

لقد برز الرقم ٩٤٩٩ فى السطر الثاني من الجدول ، ولقد خُيل إليه أن أرقامه ترقص أمام ناظريه ساخرةً من ارتيابه وشكّه ، هازئةً به وبضعف يقينه وثقته ؛ فأخذته النشوة واستحوذ عليه السرور ؛ ولقد تركت الجريدة تسقط من يديه على ركبتيه دون أن يتحقق صحة ماقرأ ؛ ودون أن يدقق فيما إذا كان الرقم الذى ذكرته له زوجه مغلوطاً فيه ؛ فقد أحسّ بطراوة منعشة تلج لها صدره ، وبنشوة مثيرة عذبة انتشى لها وطرب

وتمتمت شفتاه بصوت خفيض :

— ماشا : الرقم ٩٤٩٩ مدرج فى الأرقام الرابحة

وحدقت زوجه فى محياه ، فأدركت من أمارات الدهشة والذهول البادية عليه أنه جادّ فى قوله ، فسرت الدهشة إليها أيضاً وعراها هي الأخرى الذهول ، فسألته وقد امتقع لونها وتركت السماط المطوى يسقط على المائدة :

— الـ ٩٤٩٩ ؟ !

— نعم يا ماشا ، الـ ٩٤٩٩

— ورقم السهم أيضاً يا إيڤان ؟ :

وكأنما كان إيڤان فى غيبوبة فأفاق ، وتذكر أن ٩٤٩٩ لم يكن الا رقم السباق وأن عليه أن يرى رقم السهم كذلك ، فتمتم : — آه : نعم علينا أن نرى رقم السهم أيضاً فلنراجع الجدول إذن ، ولكن... لحظة من فضلك يا ماشا ، حسبنا لذة الآن وجود رقم السباق فى جدول الربح ، أتفهمين ؟ :

قال ذلك وهو ينظر إلى قرينته ، وقد تجلت على ثغره بسمة عريضة بلهاء كأنه طفل غرير أراه أحد الناس شيئاً يبهر النظر

وبسمت امرأته كذلك ، فلقد كان الأمر لها كما كان له لذيذاً عذباً ، وإن كانت لم تتيقن بعد من معرفة رقم السهم المجدود

وهزتهما الأحلام وهدهدتهما الأمانى ، أحلام وأمان ممكنة التحقيق ، فيا للذة المسكرة !

وقال إيڤان بعد صمت طويل :

— لقد ظهر رقم السباق فمن المحتمل إذن أن نكون قد ربحنا . إنه محض احتمال ، إلا أنه مستحب

وكأنما عيل صبر زوجته اللجوج فقالت له :

— حسن : لقد آن لك أن تنظر الآن ؟

— دقيقة واحدة فقط ، أتسمحين ؟ إن لدينا من الوقت متسعاً نبتلى فيه بالاخفاق ، ونجابه الحقيقة المرّة إن كنا مخدوعين ، فلم لا ننعم بهذه اللذة السانحة ؟ وصمت لحظة ثم استطرد : وقد تكون أبدية ، فمن يدرى ؟

إن الرقم فى أعلى الجدول وفى السطر الثانى فقيمة الربح إذن خمسة وسبعون ألفاً من الروبلات وليس هذا بالمبلغ القليل ، أجل إنه لثروة :

وألقى على الجريدة نظرة فاحصة كأنما شاء أن يعلم إن كان الرقم ٢٦ موجوداً فيها أم غير موجود ، إلا أنه لم يلبث أن استرجعها دون أن يجلو حقيقة الأمر ، فلقد عزّ عليه أن يفقد هذه اللذة التى لم يشعر فى حياته بمثلها . وما هي إلا لحظة حتى تابع القول :

هيه يا ماشا ، اصغي إلىّ . أية سعادة تلك التى ستغمرنا بفيضها الساحر إن كنا قد ربحنا حقاً ؟

فضحكت وضحك معها ثم راحا معاً يتأملان طويلاً فى صمت وهدوء . فاحتال اقبال السعادة عليهما بوجهها المتألق الضاحى بلبلهما وألقاها فى قلق واضطراب ، فذهلا عن نفسيهما واستسلما للخيال الممتع حتى لم تعد الدنيا لديهما إلا صفحة بيضاء خط عليها بأحرف بارزة كبيرة العددان ٩٤٩٩ و ٧٥٠٠٠

ونهض إيڤان من جلسته وجريدته فى يده وراح يتخطر بقامته المشوقة وقد بدت على محياه دلائل التفكير العميق ولم يلبث أن وقف وقال :

— أجل ياماشا ، أي سرور سيغمرنا إن كنا قد ربحنا حقاً ، وأية حياة جديدة تلك التي سنحياها ، وأي انقلاب سيتناول شؤوننا كافة ؟ إن السهم لك وحدك لا ينازعك فيه منازع ولكن حبذا لو كان لي ؟ إذاً لكنت اشتريت قبل كل شيء عقاراً بخمسة وعشرين ألفاً ، ولبذلت عشرة آلاف لشراء أثاث جديد لمنزلنا ، ولوفاء ما على من دين قليل ، وللسياحة في بلاد الله الواسعة ؛ وأما الأربعون ألفاً الباقية فأضعها في المصرف

فأجابته امرأته وقد جلست ويداها على ركبتيها :

— أحسنت يازوجي العزيز ، فالعقار لابد من شرائه ، على أن يكون في أنحاء (ڤولا) أو في أرباض (الأورول) فنحن لانملك منزلاً نقضي فيه فصل الصيف القائظ ، والعقار عدا ذلك ستدر علينا أرضه الخيرات

وتراكمت في مخيلته اللوحات والصور ، وكل واحدة أفتن من الأخرى وأعلق بالقلب ، وتخيل نفسه فيها جميعاً يأكل من الأطعمة أشهاها وأهناها ؛ ويعيش على هواه أرغد عيش وأترفه ، معافى الجسم ، قوي البنية ، مرتاح الضمير ، قرير البال

وتخيل نفسه وقد أخذه الحر الشديد ، غير أنه ماشكا ولا تبرم ، فالمرطبات أمامه والمبردات المنعشة رهن إشارته ، وهو إذ تناول منها ماشاء يرى أن يستلقي على ظهره على الرمل المنثور فوق ضفة الجدول الرقراق أو في الحديقة الوارفة الفينانة ، وقد صحا الجو واعتل النسيم ، وعلى مقربة منه ولداه الصغيران يلعبان معاً على الرمال ويحفران فيها حفراً صغيرة يملآنها بالماء ، أو يلهوان في أرجاء الحديقة الفيحاء ويلتقطان منها بعض الحشرات من بين الحشائش الخضلة الندية

على هذه الصور الفاتنة غفا إيثان على مهل غير آبه لشيء ولا عابئ بأحد ، وقد شعر من صميم فؤاده بلذة مابعدها لذة ، وأحس أنه يستطيع أن يفعل ما يحلو له ويطيب ، فهو إذن لن يذهب إلى مكتبه لاغداً ولا بعد غد ، ويرى ليصد عنه النعاس إذا أخذ بمعاقد أجفانه أن يتعهد أصص الورود والرياحين ، أو أن يتجول في قلب الغابة اللفاء يفتش في حناياها عن الذي يحب ، أو أن يقف على ضفة النهر ينعم بمرأى البؤساء وهم يتصيدون الأسماك

هذا في الصباح ؛ أما في المساء ، عند ما تلم الشمس ذوائبها النورانية من حواشي الأفق فلا أشهى لديه من الاستحمام في النهر ، وإنه ليرى نفسه وقد دلف إليه متأبطاً منشفته فما يكاد يصل حتى ينزع ثيابه عنه بتؤدة وبطء ثم يدغدغ صدره العاري بكلتا يديه ما يشاء له أن يفعل . وبعدئذ يلقي بنفسه في الماء حيث ترتج الأسماك الصغيرة وتهتز ، وحيث تتموج الحشائش المائية وتتمايل مع هبات النسيم الرخي ، فيستحم ساعة أو بعض ساعة متنعماً وحده دون الناس أجمعين ، ثم لا يرى بداً من أن يستجم قليلا وأن يتناول أثناء فترة استراحته شيئاً من الزبدة مع الشاي والكعك ، وما إن ينتهي من

هذا حتى يكون قد آن أوان التنزه في هدأة المساء الرائق ، أو التسلي بلعب الورق مع الصحب والجيران

كان إيڤان يسبح من خياله الرحب في بحر لجيّ عندما قالت له امرأته وقد كانت في غمرة الأحلام مثله :

— أجل إننا لنحسن صنعاً بشراء عقار يا إيڤان.

قالت هذا وصمتت وعيناها عالقتان بالهدف البعيد ثما يشاك رائيها ساعتئذ في أنّ الأحلام تسكرها هي الأخرى

وكأنما لم يسمع إيڤان ما قالت فما التفت إليها لأنه كان لم يزل يتخيل

وإنه ليرى نفسه في الخريف ، والخريف فصل حبيب إلى فؤاده ، فهذه السماء مربدة الأفق مكفهرة الأديم ، وهذه الأمسيات كالحة باسرة ، والتنزه في هذه الفترة من الزمن متعة . فها هو ذا يخرج إلى الحديقة وقد عبثت بأزهارها أيدي الرياح الهوج ؛ وها هي ذي أوراقها الصفراء مبعثرة ها هنا وها هنا كأنها الضحايا أو أشلاء الشهداء في معترك الشرف فما يتمشى قليلا حتى تنفحه النسمات ؛ وما إن تسري البرودة في عروقه وتتمشى في مفاصله حتى يهرع عائداً إلى منزله فيتناول كأساً من (الفودكا) يدفئ بها أحشاءه ويتلمظ لقمة أو لقمتين من الخيار المكبوس مع الشمرة أو الفطر الأحمر ثم يجرع كأساً أخرى . . .

وهنا يعدو ولداه عائدين من البستان ومعهما قليل من اللفت والجزر تنث منه رائحة الأرض الرطبة

ويستلقي بعدئذ على الأريكة ويطالع على مهل جريدة مصورة ، حتى إذا خدرت أعصاب عينيه واستولى عليه النعاس غطى وجهه بجريدته واستسلم إلى الكرى الهادىء المطمئن بعد أن يكون قد جاء من فك له أزرار صدريته وخلع نعليه

وهكذا مضى إيڤان في تصوراته ، وانتقل به خياله من الخريف الحزين إلى الشتاء المنتحب الباكي فاذا به يرى السماء ممطرة أبداً لا ينقطع لها معين ، ولا ينضب لها ميزاب ، والأشجار معراة من كساها الحالية النضرة ترتعش أمام صفعات الرياح القرة الباردة ، والدواجن في المزرعة قد لجأت إلى أوكارها من رذاذ المطر المنهمر خائفة حزينة ، والناس قد أووا إلى منازلهم فلا متنزه يؤمّ ولا حديقة تقصد ، ويرى نفسه هو قد اضطرته الطبيعة الغضبى أن يبقى في المنزل كسواه ، فيذرع الغرفة بخطواته المتزنة ذهاباً وإياباً طول النهار ، وأن يتطلع بين الفينة والأخرى بقلق وضجر لا حد لها خلال النوافذ الزجاجية التي خددها المطر إلى حين

وهنا وقف إيڤان فجأة كأنما انقطع تيار خياله الجامح وقال :

أتدرين يا ماشا ؟ ! إني سأغترب

ثم صمت لحظة تخيل فيها نفسه يتنعم بلذة الهجرة في أواخر الخريف وهو يتنقل كالطائر من بلد إلى بلد زائراً فرنسا فإيطاليا فالهند ؛ وإنها لرحلة ممتعة شائقة ما في ذلك ريب

— وأنا أيضاً سأغترب يا إيڤان » قالت امرأته بنبرة جازمة ثم استطردت :

أما حان أن تنظر رقم السهم ؟

— دقيقة واحدة إذا تفضلت ، أرجو أن تنتظري

وراح يتهادى فى الغرفة مفكراً ، وقد سهم وجهه وقطب أساريره ، ويتساءل عما إذا كانت امرأته تعنى حقاً ما تقول وأنها ستغترب معه !

لخير له وأجدى عليه أن يسافر بمفرده من دونها ، أو برفقة غانيات رعناوات إن لم يكن للرفقة من بد ، غانيات خفيفات لا هم عندهن ولا غم ولا يعشن إلا للساعة التى هن فيها ؛ أما السفر مع امرأة لا تفكر طول الطريق إلا فى أولادها ولا تتكلم إلا عنهم متأوهة تارة متدللة أخرى ، تحاسبه على كل بارة ، فهذا ما يكرهه ويجتويه

وتمثلت له زوجه فى عربة القطار المكتظة بالزوم والسلال والطرود تتأوه ولا يدرى أحد لماذا ، وتشكو الصداع لداع ولغير داع ، وتتذمر من كثرة النفقات ، وتتبرم من غلاء الحاجات ، وترغمه فى المحطات أن يهرع ليبتاع لها « سندوتشاً » وليأتيها بالماء ، لأن حضرتها لا تريد أن تتناول غداءها فى المطعم لبهظ الأسعار ، وهذا ما لا يرغب فيه . إذن خير لها وله أن تبقى فى منزلها لا تبرحه وان تطلق له حريته ، فالسياحة لم يخلق لها الشحيح الضنين ، وما عسى يستطيع البخيل أن يرى من متع يا ترى ؟؟

ثم إنها عدا ذلك كله ستلازم غرفتها فى الفندق الذى سينزلان فيه

وستحتفظ به حيالها لا يفارقها وهذا ما لا طاقة له به ولا قدرة له على احتماله

وألقى على امرأته نظرة فاحصة عجلى ، فاذا به يراها لأول مرة فى حياته ، قبيحة المنظر ، دميمة الوجه ؛ قد دهمتها بوادر الكبر ، وظهر عليها أثر السنين ، وتفوح منها — فوق هذه العيوب — رائحة الطبخ الذى قلما تفارقه ؛ فى حين أنه هو مايزال فى إبان الصبا وشرخ الشباب أليق مايكون بالزواج ثانية من خير فتاة

وقال إيڤان فى نفسه : إن هذا لمن سفساف القول ولا طائل لى فيه ؛ وإن هذه حقيقة لا أجحدها ولا أنكرها ، ولكن لماذا تريد هذه الملعونة أن تغترب ؟ وماذا تفهم من السياحة والأسفار من تكون (نابل) و (كلين) لديها سواء ؟ !

إنى لأشعر منذ الآن أنه لن يكون لها من عمل إلا مضايقتى وإرهاقى ، وإنى سأكون تحت حكمها لا أعصى لها أمراً . وإنى عدا ذلك ، أدرى الناس بها فى كيفية الاحتفاظ بالدراهم والحرص عليها ؛ فهى ستضعها — شأن أكثر النساء — فى صناديق من حديد وراء عشرات الأقفال المحكمة ، وستخبئها عنى وتحصى علىّ الفلس الواحد ، فى حين أنها ستكون سمحة الكف جوّادة مع أهلها وذوى قرباها

وهنا تذكر إيڤان أهل زوجته وأنسباءها ، وكيف أنهم سيفدون إلى دارها متى علموا بالربح يستجدونها فى إلحاح المتسولين وهم يبتسمون بعذوبة ورقة ؛ والله أعلم أى لؤم تخفى تلك البسمات ، وأى رياء ؟ ! ...

يالهم من ذرية سافلة دنيئة ، ومن نسل لا خير فيه ، إذا أعطوا ألحفوا فى طلب المزيد ، وإن رُدّوا نشطت ألسنتهم تغتاب وتقدح ما شاء لها الاغتياب والقدح ، وتمنوا لرادهم كل أذية وبلاء .

وتمثل له أهله ، فإذا به يراهم صفيق الوجوه فى

حين أنه كان — لساعة خلت — يرى تلك الوجوه ذاتها تفيض بالوداعة ، وتتألق بالحياء والبشر

فتمتم : « بالمحشرات ! »

لقد بدت له وجوه أحب الناس لديه وأدناهم إليه بغيضة مكروهة ، وغلى صدره بالحنق عليهم جميعاً ، وتمنى على الله في سره لو لم يوجدوا

وتدنى سروره ، فلقد شابه الكدر ، وعرت جسمه رعشة اشمئزاز من أولئك الأهل المرائين المتسترين تحت ألف نقاب ، ومن تلك الزوجة المقترة حتى على نفسها التي لا تدرك للمال لذة إلا بكنزه في صناديق من حديد وراء ألف قفل

وتوارت البسمة التي كانت تعلو محياه منذ حين فكاحت منه الأسارير وأصبح لا ينظر إلى زوجته إلا شزراً . وهي ، هي كذلك انتابها منه ما انتابه منها ، فبدا لها بغيضاً ممقوتاً وهو الذي كان بالأمس مطمح آمالها ومحط أمانيها ، فراحت ترمقه بكثير من الحقد ؛ فإن لها هي كما له أحلام مذهبة الحواشي ، ولها آراء تعجب بها هي على الأقل إن لم يعجب بها سواها ، ولها خطوط ومشروعات كلها رائعة جميلة ، ولم لا ؟ أيكون زوجها المأفون هذا خيراً منها ؟ ! لا وألف لا ! وإنها لتعلم العلم اليقين فيما ذا يفكر زوجها ، وماذا يتراءى له ، وإنها أدرى الناس به وأخبرهم بطباعه . إنه سيكون أول من يمد رجليه على ظهرها وأول من يتبسط على حسابها هي ، ولقد كانت بنظراتها ـ التي تعني أنه من الجميل أن يحلم المرء على كيس سواه ـ تنطق بما عي لسانها عن بيانه . ولقد فهم الزوج معنى تلك النظرات الشزراء وأدرك ما يجول بخاطرها عنه ، وقرأ في تلك الملامح المغضنة ما أبدته ضغائن القلب الحقود ، فاحتدم غيظه واشتد حنقه ؛ وسرعان ما فتح الصحيفة وأتى على الصفحة الرابعة منها نظرة خاطفة وأعلن لهما ، حبا في مناوأتها فقط ، بصوت الفائز الفخور :

— « السباق ٩٤٩٩ والرقم ٤٦ لا ٢٦ » وصمت على مضض

لقد شاء أن يثير حفيظتها ، وأن يحنقها فتم له ما أراد ، إلا أنه تأثر هو كذلك واستاء . فالأحلام الذهبية تلاشت واضمحلت ، وهوت قصور الأماني إلى الحضيض هويا ، فتمثل المنزل لهما حالكا قاتماً حقيراً ، وظهر لهما أن العشاء الذي فرغا من تناوله منذ حين لم يكن لذيذاً شهياً ، ولقد شعرا معاً بوطأته على معدتيهما

وتراءت لهما هذه الأمسية طويلة ما تنتهي ، ومملة غاية الملل ؛

فيا للأجواء المربدة القاتمة وإن لم يكن بها اربداد ولا قتام :

ومشى إيفان مهتاج الأعصاب ثائر النفس وتخطى الردهة بخطى المسرع العجلان وصوته الحانق يجلجل في أرجائها ، فتتجاوب منه الأصداء :

— ما هذا ؟ لا أدري ما أدعوه وربي ؛ فأينما أمش لا أر إلا قصاصات الأوراق ، وأتعثر بالأشياء المبعثرة هنا وهناك ، وفي كل زاوية بل في كل موضع لا تقع العين إلا على فتات الخبز وقشور البيض ، أمزبلة هذا أم منزل ؟؟

يجب أن أنأى عن هذا الجو الموبوء وأن أهجر هذا المحيط الملعون ، سأذهب ، وليحملني الشيطان ، فأشنق نفسي على أول شجرة أقع عليها في سبيلي

ترجمة جورج سلستي

(٤)